

ضريح الباي مصطفى لحمر بمستغانم دراسة أثرية

د. بلجوزي بوعبدالله
جامعة تلمسان-

الموقع:

يقع ضريح الباي مصطفى لحمر على هضبة في أعالي حي المطمور وسط بعض المساكن القديمة التي ترجع إلى الفترة الاستعمارية، يقابله من الجهة الشمالية ضريح الباي بوشلاغم يفصل بينهما الطريق المؤدي من وسط المدينة إلى حي العرصة.

1- المؤسس وتاريخ التأسيس:

ينسب بناء هذا الضريح إلى الباي مصطفى لحمر الأخ الأصغر للباي مصطفى بوشلاغم، والذي تولى بايا على بايلك الغرب سنة 1147هـ/1735م⁽¹⁾، وأهم عمل قام به بناؤه لأسوار مدينة معسكر، توفي بمستغانم مسموما، ودفن بالمطمور وبنيت على ضريحه قبة⁽²⁾ تعرف باسمه إلى اليوم وأما عن تاريخ بنائها فالأرجح أن تكون سنة وفاته.

2- التغيرات والتجديدات:

تحول هذا الضريح في العهد الاستعماري إلى مخزن للذخيرة الحربية⁽³⁾، وبعد الاستقلال تحول إلى مأوى لبعض العائلات التي ما تزال به إلى اليوم، وهو الآن في حالة يرثى لها.

3- الدراسة الوصفية:

3- أ المخطط العام:

إن الشكل العام لهذا المعلم عبارة عن قسمين منفصلين برواق مستحدث:
القسم الأول يحمل القبة الضريحية الكبرى وشكله يميل إلى الاستطالة، أما القسم الثاني فيحمل القبة الضريحية الصغرى، وشكله يميل إلى التربع تقريبا، تقدر مساحته الإجمالية بحوالي 148م². (المخطط رقم: 01)

3- ب الوصف الءارءى:

ىءم الءءول إلى هءا الضربح عبر باب ءلءل صءىر اسءءء بىن قسمىه؁ ولا ىلءو أنه المءءل الءقىلى لهءا المءلم؁ مع الإءارة إلى أن هءا الضربح قء طراء علىه عءة ءءىراء من الءارء؁ نلمسها فى اسءءءاء عءة نوافء وفاءاء بالءهة الشرىة والءنوبىة؁ هءا فضلا عن الءشققاء وءمو النباءاء على القباءىن؁ والءى أءراء بشكل كبىر على هىكله المءمارى. (الصورة رقم:01)

3- ء الوصف الءالى:

ىؤءل الءءول من الباب الصءىر - المءار إلىه سابقا- إلى الفضاء الفاصل بىن الءءربىن الضربحىىن؁ وىلءو ءلك من ءلال ملاءااا للءءاربىن اللءىن ىءصرانه؁ ءىء وبعء إزالاا لبعض الءءارة فى ءءار ءرة القبة الصءىرة؁ وءءنا أءر لفاءة معقوءة (مسءوءة ءالفا) (الصورة رقم:02)؁ وللاءأكء ءءلنا إلى هءه الءرة فوءءنا على ءءارها الءالى نفس الأءر للفاءة المءار إلىها؁ وبعء ءلك قمنا بمعاىنة الءءار الءانى الءى ىءصر الرواق فوءءنا فاءة معقوءة بنفس الءءم (مسءوءة ءالفا) مقابلة لفاءة ءءار الءرة الضربحىة الصءرى وبنفس العملىة قمنا بمعاىنة الءرة الضربحىة الكبرى من الءال فاءأكء لنا الأمر؁ مما ءعلنا ناءأكء من أن ءءربى القباءىن كااا مفاءءىن على بعضىهما ببابىن مءقابلىن.

ىفضى الباب المساءءء إلى فناء (ءوش) صءىر نءء على ىساره باب ءلء من الءشب ىفضى إلى ءرة القبة الصءىرة؁ وهى مربعة اقربفا طول ضلعها 05م وهى أكبر ءءما إذا ما قورنا بءرة لالة عىشوش؁ فرشاء أرضىها بطبقة إسمنىة؁ وفاءء فى ءءاربىها الءنوبى والشرقى نافءىن ءلءىىن مسىءىىن بقبضان ءلءلءة؁ واءقوم فى أركانها العلوىة أربع مناطق اناءال على هىئة صءفة أو مءارة مبنىة بالآءر.

كما نأىر أىضا إلى وءوء فاءة مربعة ءال ءل عمق الءءار الءالى لهءه الءرة؁ لم نءرف فى البءلءة وظىفاءها؁ لكن بعء ملاءااا الءقىة واءفءنا لسطء الءرة اكاءشنا أن هءه الفاءة كااا عبارة عن قناة وسط الءءار اءسءعمل لءرف مفاه الأمطار الءى اءساقط على السقف واءمر عبر قناة فءارىة اءسءءم رءما فى سء ءاىاء الضربح من الماء أو لاءفاى اءشقق الءءران بفعل مفاه الأمطار.

وبعء الءرء من هءه الءرة نءء على ىمىنها كاءة لمءءل بسىط ىراءف بءربىىن أو أكأر

قليلا عن مستوى أرضية الفناء، وهو عبارة عن فتحة باب ذات مصراعين من الخشب يعلوهما عقد نصف دائري. (الصورة رقم: 03)

يفضي هذا الباب إلى بهو شكله مثلث تقريبا، أرضيته مبلطة بالإسمنت وسقفه ذو قبة أسطوانية مبني بالآجر يستعمل هذا البهو اليوم كمطبخ للعائلة الساكنة بهذا الضريح.

وعند تفقدنا للجدران الداخلية لاحظنا في الجدار الفاصل بينه وبين حجرة القبة الكبيرة فتحة معقودة بعقد نصف دائري (مسدودة حاليا) (الصورة رقم: 04)، وللتأكد دخلنا إلى هذه الحجرة عبر فتحة مستحدثة في جدارها الشمالي فوجدنا نفس الفتحة، ولكنها مسدودة أيضا، وهو ما جعلنا نستنتج أن الدخول إلى هذه الحجرة كان عبر الفتحة المسدودة، مع ملاحظة أنه لا يوجد أي باب للدخول إلى هذه الأخيرة.

وفي الأخير رجحنا أن المدخل الذي يؤدي إلى البهو المشار إليه سابقا ربما يكون هو المدخل الرئيسي للضريح ككل، آخذين بعين الاعتبار مقارنته بضريح الباي بو شلاغم الذي يشبهه إلى حد كبير في مخططه العام.

وأما بالنسبة للحجرة التي تقوم عليها القبة الكبيرة فشكلها مستطيل طوله 6.80م وعرضه 0.6م، تقوم في أركانها العلوية أربعة مناطق انتقال داخلية على هيئة مثلثات كروية متقاطعة، وهي تشبه تقريبا تلك التي وجدناها في ضريح الباي بوشلاغم غير أنها أكثر جمالا منها، كما نلاحظ أيضا في كل ركن من أركان هذه الحجرة حنية على شكل عقد نصف دائري يرتكز طرفاه على زوج من أعمدة دائرية مبنية بالحجر الرملي (الصورة رقم: 05)، تقوم على هذه العقود رقبة ترتكز عليها قبة مثمثة تتخللها ثمانية فتحات، أربعة منها مفتوحة.

ونشير أيضا إلى وجود عدة نوافذ مسدودة في أركان هذه الحجرة عكس حجرة الباي بوشلاغم التي نجد في كل ركن من أركانها نافذة أو نافذتين، وربما يعود ذلك إلى التغييرات التي طرأت عليها أثناء الفترة الاستعمارية باعتبارها كانت مخزنا للذخيرة، كما نجد بعضها أغلق من طرف السكان القاطنين بجانبه، وذلك ما توضحه مواد البناء الحديثة.

وأما بالنسبة لأرضية هذه الحجرة فقد تعذر علينا معرفة تفاصيلها وطبيعتها تغطيتها وذلك لكثرة الأوساخ المرمية بداخلها، ومع ذلك وجدنا بقايا لأساس سور قريب من منتصفها، ولم نعرف على وجه التحديد وظيفته الأصلية، ولكن يبدو أنه أضيف من طرف السلطات الفرنسية. وعند سؤالنا لأحد أفراد العائلة من المسنين والسكان بالقرب من الضريح، ذكر لنا أنه في

سنوات السبعينيات، كانت أرضية هذا الضريح مغطاة بعوارض خشبية، وعندما نزع جزءا منها وجد بقايا أسلحة تعود للفترة الاستعمارية، وبعد اتصاله بالسلطات المحلية تدخلت فرقة من عناصر الجيش الوطني وأخرجت ما تبقى منها.

ولعل ما يدعم أقوال هذا الشخص مرسال بودان (Marcel Bodin) الذي ذكر عند وصفه لضريح الباى مصطفى لحمر أن أرضيته بلطت بعوارض خشبية لإخفاء لوحة الرخام التي كانت تحمل كتابة شاهد قبر الباى مصطفى لحمر⁽⁴⁾.

ويمكن القول في الأخير أن التخطيط المعماري لضريح الباى مصطفى لحمر وضريح الباى مصطفى بوشلاغم، وإن اختلفا في الحجم، وفي وضعية المداخل الرئيسية، إلا أنهما متشابهان تقريبا في التركيب المعماري الداخلي من حيث توزع العقود والأعمدة داخل الحجرة الضريحية لكل من المعلمين، وكذلك نجد هذا التشابه في الخارج من حيث وضعية القبتين، إلا أنهما منفصلتين وهذا مالا نجده في ضريح الباى بوشلاغم.

- لقد تنوعت مواد البناء التي استخدمت في تشييد هذا المعلم ما بين الحجارة غير المنتظمة، والآجر، واستعمل الملاط الأحمر في الربط بينها، وهي نفس المواد المستعملة تقريبا في بناء ضريح الباى بوشلاغم.

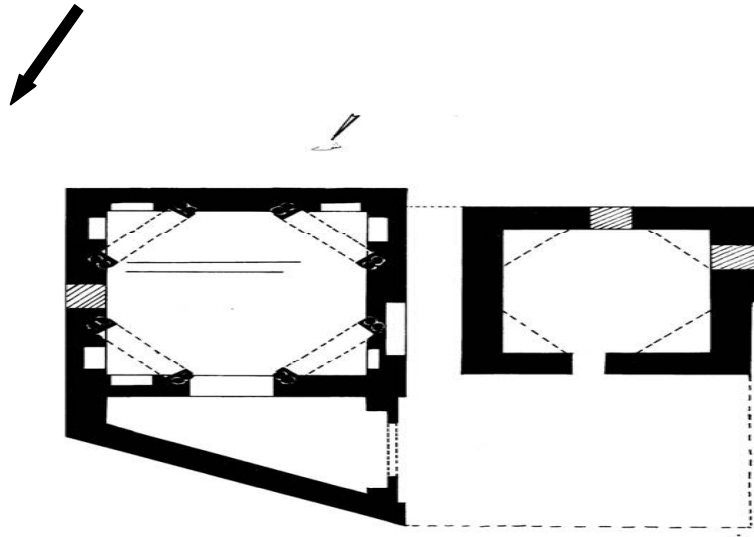
فأما الحجارة غير المنتظمة فاستخدمت في بناء الجدران الخارجية والداخلية للضريح، ويتضح ذلك من خلال التشوهات التي لحقت بالمبنى، واستعمل معها أيضا الآجر للتسوية، كما استعمل هذا الأخير في تشكيل العقود الداخلية، وفي بناء القبتين، وكذلك في أطر النوافذ وفتحات الأبواب الفاصلة بين الحجرات (مسدودة حاليا) إضافة إلى هذا استخدمت مواد بناء حديثة كالإسمنت والآجر، والتي أثرت بشكل كبير على الهيكل المعماري للضريح.

أما من الناحية الزخرفية، وباستثناء العقود والأعمدة المزدوجة التي كان لها دور عناصر معمارية تزيينية إلى جانب دورها الإنشائي، فلا شيء آخر يسترعي الانتباه، وربما يعود ذلك إلى تعرضه للحرق مرتين، كما يذكر أحد المسنين القاطن بالقرب من الضريح، وأتى على زخرفته الداخلية بالكامل، ويذكر نفس الشخص أنه كان مكسوا من الداخل بزخارف جصية، ورسومات آدمية إضافة إلى رمز الصليب.

يذكر مرسال بودان في هذا الصدد عند وصفه لضريح الباى مصطفى لحمر أنه كان يحتوي بالداخل على زخارف أصلية منقوشة على طبقة جصية⁽⁵⁾.

ويبدو أن السلطات الفرنسية بمرور الوقت أعادت زخرفة هذا الضريح من الداخل، واستعملته في أغراض أخرى بعدما كان يستعمله كمركز للذخيرة الحربية، ومن التغييرات التي لاحظناها أيضا وجود أثر لبلاطات خزفية على الملاط الأصلي، والتي نزعّت وعوضت بطبقة من الجص.

ونشير في الأخير أنه إذا تدخلت السلطات المحلية وقامت بتنظيف هذا الضريح لربما تكشف لنا عن أشياء مهمة منها اللوحة الرخامية التي أشار إليها مرسال بودان بوجودها تحت العوارض الخشبية التي وضعها الاستعمار الفرنسي، والتي من شأنها أن تؤرخ لنا هذا المعلم.



سُلّم: 1/100

المخطط رقم 01: ضريح الباي مصطفى لحمر بمستغانم (من عمل الدارس)



الصورة رقم 01: منظر عام لضريح



الصورة رقم 02: الرواق الفاصل بين القبتين بضريح الباى مصطفى لىمر



الصورة رقم 03: المدخل الرئيسى المفترض لضريح الباى مصطفى لىمر



الصورة 04: الباب المؤدي إلى الحجرة الضريحية الكبيرة (مسدودة حاليا)



الصورة 05: منظر داخلي لضريح مصطفى لحمر

هوامش البحث:

- 1- محمد بن يوسف الزياتي، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص.194.
- 2 - Bodin (M.) ; Tradition indigènes sur Mostaganem itinéraire Historique et légendaire de Mostaganem et de sa région, Oran, (S.D.), P.53.
- 3 - Bodin (M.) ” Tradition indigène sur Mostaganem et Tidjdit”, Bulletin de la. Société de Géographie d’Oran, t. XLX ,1929.p.39.
- 4 - Bodin (M.), Op.cit, P.38
- 5 - Bodin (M.), Tradition indigène..., op.cit, p.54